

كيف تكتسب الأصدقاء

”بحث تنسي اجتماعي“

لأديب محمد عبد الكريم

”رأس لعقل بعد الإيمان التعجب إلى الناس“

حديث شريف

يحتل علم للنفس بفرعيه التجري والاجتماعي اليوم مكانا كبيرا بين علوم الاجتماع، إذ يتناول بحث مختلف غايات الأخلاق والتربية والقانون، فهو يهدف إلى تكوين الشخصية الناجحة للفرد، ثم هو يتجه إلى ربطهؤلاء الأفراد بصلات وثيقة متساقطة من التكافل والتراحم ليقم منهم على اختلاف ميولهم ونزعاتهم كأننا اجتماعيا سليم البينان ثابت الأركان .

فتحن عاصر مجتمع لا يتيسر العيش فيه دون تعامل يقوم على وفاق، وتبادل للخدمة تسوده روح من المودة والإخاء . وإذا كان المشرعون قد أقاموا من سلطان القانون قوة تمنع الجور وترد العدوان، فإن المشتغلين بالنفس وعلومها ليدروا أن — بما يترسمون من سبل وما يستنون من أساليب — أضرارا كثيرة، ويحولون مشكلات عديدة ما أقاموا روح الرضى بين الناس وأزالوا أسباب التناحر والتنازع .

يقول ولیم جيمس العالم النفساني ”إن في أعماق النفس البشرية لشوقا إلى العشر برضى الناس وتقديرهم“، وهو إذ يقرر ذلك لا يتطاب من الدرد لكي يظفر بهذا الرضى غير ابتسامة وادعة أو كلمة طيبة (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصابها ثابث وفرعها في السماء) .

ولقد رسم لنا جيمس في نظريته ”الحركة تسبق العقل“ طريقا إلى اكتساب القلوب لا يكلفنا أكثر من استنثار البشر والانسجام دواما بالبشاشة، فأنت حين تلاقى المبتسم يملك شعور لا إرادى على الانسجام، وحين تلاقى الناس تجزع دون ما تنسجى العيوس والتقطيب . ولعل الجليلي فيما يقرر جيمس أنه يطالب إليك الانسجام حين تنسجى القضب، والإحجام حين تخاف عوقب الإقدام . وهو يؤكد أن الانسجام أتى تبادرها مصطنعة متكلفة تؤثر على تفكيرك فتتجه بك إلى عكس ما يراه لك باعث القضب، وأن خطوتك التي تحمل نفسك على الرجوع بها فوراً دون تفكير تفعل في عقلك ما يبعده عما يتشاهد من تهور والدفاع، وإن فيما يراه فيلسوف الغرب ومن إليه لمصدقا أقول على كريم الله وجهه ”البشاشة حبل المودة ولا حبال قبر اعيوب“، وقوله : ”قنوب الرجل وحشية فمن رثمها أقبلت عليه“ .

ولقد أجمع الأولون والآخرون من الحكماء والمشتغلين بعلوم النفس على أن النفس تواقفة بنفطرتها إلى التعجب إلى غيرها، وإلى الفوز برضى من حولها، وأن الشافر الذى نشهد به يرجع فى أكثره إلى شك يحتاج النفوس فى نوايا النفوس .
أو فى نظرات الناس بعضهم إلى بعض .

واقصد يذهب الاهتمام بالرضى المنشود إلى إغراق الفرد فى استدرار عطف الآخرين حتى ليبلغ بالواحد منهم أن يتحصر حديثه على نفسه وما فعل وما أدى وما يتخيلها من أفكار وهو فى هذا يضيق الخناق على كل من يلقاه ليفرض ذاته ويجعل بالأثرة منها محور كل قول وحديث، فالأفراط فى الذاتية أو ما يسمونها بالأنا أمانة ضعف ومرضى نفسى . فما كان أسلم أن يحتاج إلى أطراء، وكما يقول جوستاف لوبون: إن من وثق بنفسه لا يحتاج إلى مدح الناس إياه ، ومن طالب الثناء دل على ارتياحه فى قيمة نفسه“

يقول روبرت هيب فى حديث لمندوب مجلة (سيكولوجى) ”من الحق أن نعترف أن فى طبيعة البشر أموراً لا تفرح ولا تنام بها ولكن الإخلاق بنا أن نرى الحسن ونفرض عن الفحيح مادام مضطرين إلى الاتصال بالناس ومعاشرتهم وهو يضيف إلى ذلك أن سر انصرام جبال المردة بين الناس والسبب الأول الذى يفقد الرجل صديقه راجع فى أكثره إلى عدم فهم المرء نفسه ثم إلى جهله طبيعة البشر“ فتجن تنقلب فى الناس كالألواح للعاملة مثلاً نقيس بها كل صغيرة وكبيرة ناسين أن لنا كبشر طابع وغرائز نشترك جميعاً فى إرضائها وإشباع مطالبها .

إن تمكين الألفة بين الناس وتوثيق عرى الروابط لا يتم بقايس تفرض على الغير وإنما بحلق وفعال تصدر من الفرد لمن حوله — فالفرد إذ يمجز عن تكييف المجتمع وفق ميوله ملزم بأن يكيف نفسه بحيث يرضى قدر المستطاع أكبر جانب من المجموع المحيط به —

واقصد عالج الكتاب هذه المسألة ورسم المشتغلون بالنفس سبلاً عمالية تدنى الفرد من غايته فى الرضى المنشود وتمكنه من اجتذاب قلوب من حوله ولعل خير ما طالعناه فى هذا ما نشره محرر صحيفة وودرن رومانيس تحت عنوان ”أكتسب صديقاً أو أفقده“ فهو يضع لاكتساب القلوب أسبانيا سبعة :

الأول : بطلب النصيحة — فأنت حين تطالب النصيح من صديق تشعره بة أنك فيه وتضعه فى وضع المثير مما يرضى نفسه .

الثانى : بالثناء الحقيقى — فليس أحب إلى النفس من ثناء يسمعه صاحبها عن عمل يستحق عليه الثناء .

الثالث : بروح الراح — فالراح يجب البقاء ويمنح على المجلس جوا مشوقا .

الرابع — بتقديم خدمات غير منتظرة — فالمفاجآت اللطيفة والتطوع للخدمة في المناسبات يقوى الصداقة ويمكن عراها .

الخامس — بالتساهل — بالتغاضي عن الخفوات .

السادس — بالاخلاص — بأن تشارك صديقك آلامه وتعينه إذا احتاج .

السابع — بحسن المعاملة — بأن تراعى شعوره وتراجع قولك وفعلك قبل إبدائه .

أما كيف يفقد المرء أخوانه فقد عدد الكاتب له سبعة أسباب :

الأول — بذل النصيحة دون ما طلب — فامدائك النصيح لمن لم يسألك فضول، هذا الى أنه وضع فيه تسويد لنفسك على غيرك .

الثاني — النقد الصريح — فالنقد اذا لم يقترن بروح التخفيف ويبدى في مجرد اشارة من طرف خفي صار لوما وتقريرا .

الثالث — بذكر متاعيك وهمومك — فلكل همومه ولا حاجة لأحد أن يضيف الى ما عنده متاعب غيره . وحديث المرحوم جديد .

الرابع — بمقابلة الخدمات دون عرفان وتقدير — فمن لم يقدر للناس معروفهم حرموه اياه واجتهدوا عنه .

الخامس — بالثرثرة — فكثرة الكلام تذهب بمحاسنه .

السادس — بالحساسية المفرطة — فالذى يشوردوا للكلمة ويتأثر من كل اشارة تهجره الناس وتبتعد عنه .

السابع — بكثرة الحوائج — فعلى العاقل الا يبدي لأخيه من الحاجة الا ما كان ضروريا وأن يراعى طاقة صاحبه على ادائها .

تلك هي مقاييس المعاصرين من المفكرين، ولعل في أقوال رسولنا الكريم لبابا يفنى وفيضا يروى، وحسبما قوله المتصل "من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كانت مروءته وظهرت عدالته ووجبت محبته"، ثم قوله الكريم "اصنع المعروف الى من هو أهله وإلى غير أهله فإن أصبت أهله أصبت أهله وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله" وقوله الحكيم "ان الله لينفض المعبس في وجوه اخوانه"، وحديثه البالغ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وفي هذا يقول البارودي :

ترفق فإن الرفق زين وقلم ينال الفتي بالنف ما كان طالبا

إذا لم يكن للراء عقل يردده الى الحلم لم يرح مدنى الدهر عاتبا

وإن دولم يصفح عن الخلل إن هنا أقام وحيدا أو قضى العمر غاضبا

محمد عبد الكريم